الفصل الثاني

الشرق العربي والديانات التوحيدية

obeikandl.com

obeikandl.com

لو نظرنا اليوم إلى العالم بأسره وأردنا أن نقسمه إلى عقائد وأديان لوجدنا أن العالم العربي وقسماً كبيراً من آسيا يدين بدين الإسلام، وحسب إحصاءات عديدة يبلغ تعداد المسلمين في العالم اليوم أكثر من مليار وثلاثمائة مليون مسلم.

ولو نظرنا إلى أوروبا لوجدنا أن المسيحية بشقيها الكاثوليكي والأرثوذكسي تنتشر في أوروبا، ولا ننسى أن أمريكا اللاتينية تدين في معظمها إلى المسيحية ذات المذهب الكاثوليكي، بينما أمريكا الشمالية تحتضن الملايين من المسيحية البروتستانتية والكاثوليكية والمسلمين، بينما يدين حوالي أربعة وعشرين مليوناً لما يسمى اليهودية.

وهذه العقائد الثلاث، الإسلام، والنصرانية، واليهودية، هي ديانات سماوية حسب تصنيف الأديان على الرغم من الخرافات وتحريفات لحقت هذه الأديان كما لحقت كتابين من كتبها وهما التوراة والإنجيل.

اليهود والمتهودون ينتشرون في كافة أنحاء العالم والأكثرية مهم يعيشون في الولايات المتحدة وفوق الأرض المغتصبة فلسطين.

ورغم عددهم القليل نسبة إلى عدد المسلمين والنصارى، فإنهم يرون في التوراة كتاباً مقدساً لهم، ويعتبرون أنفسهم من أتباع النبي موسى عليه السلام.

أما المسيحية المعاصرة فإن أصحابها يعتمدون الأناجيل الأربعة ويطلقون عليها الكتاب المقدس، العهد الجديد، ويدينون حسب قولهم لعقيدة المسيح عليه السلام.

والإسلام دين انتشر في أصقاع الدنيا ويعتبر المسلمون كتابهم المقدس القرآن الكريم ويؤمنون بأن النبي محمداً (ﷺ) نبيّهم.

وبمعنى من المعاني فإن أتباع هذه العقائد أينما كانت ديارهم يعودون إلى عقائد ثلاث منبعها المنطقة العربية وليس سواها.

فهنا وقبل أن نغوص في دراسة أديان وعقائد الشرق التوحيدية، لابد أن يعترف الغرب أن للشرق الحق في أن يقول بمركزية العقائد والأديان العالمية، وليس للغرب أي فضل في ذلك.

اختيار إلهي لأرض الشرق العربي لتكون مهد النبوات.

عرف العالم الشرقي العربي النبوات دون غيره، بدأت النبوات بآدم وانتهت بنبوة محمد (ﷺ).

مرَّ على المنطقة أنبياء عديدون، ونشروا دعوتهم في أماكن عدة، وتميزت دعواتهم بأنها جاءت في أكثرها لأقوام بحد ذاتها، لكن من رغبوا في إتباعهم توسعوا في نشر عقيدتهم التوحيدية في أصقاع بعيدة من العالم، فانتشرت المسيحية في كثير من مناطق العالم وكذلك الإسلام، حتى تجاوزت العقيدة الإقليم، أو المنطقة إلى أقاليم أخرى بل إلى قارات أخرى.

ومن خلال نظرتنا لمفهوم النبوة نرى أنه مفهوم عربي صرف، وقد عُرف هذا المفهوم بعد أن نزل القرآن على سيدنا محمد (ﷺ). وأصبحنا بفضله نميز بين من هو نبي وبين بقية البشر والناس.

لم تعرف أوروبا هذا المفهوم في تاريخها القديم، ولا حتى في تاريخها الوسيط والحديث، وإن كانت بعض الأقاليم قد عرفت شخصيات دينية وفكرية قادت الكثيرين إلى طريقها، أمثال بوذا، وزرادشت، إلاّ أن مفهوم النبوة لم يلتصق بهم، لذلك نرى البوذيين قد جعلوا من بوذا إلهاً ولم يضعوه في مصاف الأنبياء، أو المرسلين من الله عز وجل.

وعندما ندرس التراث المسيحي أو اليهودي أينما كان فإننا نراه يمتلئ بالحديث عن أنبياء الأمة والأرض العربية، فالعالم المسيحي يعترف بنبوة الكثيرين من الأنبياء وخاصة أنبياء بني إسرائيل، وينكر النبوة على غيرهم، وقد حفلت

التوراة بالحديث عن شخصيات كثيرة وُصفت بـ رجال الله، ولم تعترف التوراة صراحة إلا بنبوة موسى عليه السلام.

حتى أننا لا نعثر على مصطلح النبوة ملتصقاً بالأنبياء الأوائل أمثال النبي إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف، بل إن التوراة تنفي عن داود وسليمان صفة النبوة، إذ تصف النبي داود بالملك، والنبي سليمان بالحكيم.

وفي مراحل متأخرة من تاريخ بني إسرائيل اختلط مفهوم النبوة بمفهوم الرائي أو المتنبئ لاسيما في زمن إرميا وهوشع، وإشعيا ودانيال وحزقيال.

والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يعلمنا مفهوم النبوة وخصائص الأنبياء وسماتهم وذلك من خلال آيات كثيرة مبثوثة في هذا الكتاب كله.

وإذا كانت الحضارة بشقيها المادي والمعنوي تفتقر إلى شيء فإنها تفتقر إلى النبوة، والحضارة العربية الإسلامية منحها الله سبحانه رسالة الأنبياء، ومنحها الأنبياء أنفسهم فكانوا دوماً الوسيلة لإرجاع الناس إلى فطرتهم في دين التوحيد وتذكيرهم دوماً بالطريق الصحيح للعقل والنفس، فما من حضارة سارت في سلوك إلهي مستقيم إلا وانتصرت على عقبات الواقع الدنيوي وانتصرت للإنسان.

ولأن الحضارة الوثنية اعتمدت الجهل الديني فقد زالت وزال معها البعد المعنوي والثقافي، والحضارة الإسلامية على الرغم من تراجعها اليوم في القضايا العلمية، إلا أنها ما تزال محافظة على روحها وجانبها النفسي والمعنوي، وستظل كذلك طالما هناك قرآن كريم يعلم ويهدي الناس إلى طرق بناء الحضارة الإنسانية في جانبها المعنوي أو الثقافي الداعم للبناء المادي الحضاري.

لقد ذكر القرآن الكريم خمسة وعشرين نبياً مرسلاً، وهناك أنبياء لم يكونوا مرسلين إلى أمم بذاتها، لكن الأنبياء الذين ذكروا في القرآن الكريم كان لهم التأثير الكبير في صياغة حياة الناس وإحيائهم نفسياً وروحياً كلما عصفت بهم أحابيل الوثنية وتأليه البشر وعبادة ما دون الله سبحان وتعالى.

ومن المدهش حقاً أن تاريخ النبوات قديم جداً، فإذا بدأنا من عصر النبي إبراهيم عليه السلام فإن الزمن يعود بنا إلى حوالي أربعة آلاف عام خلت، وما يزال النبي إبراهيم حاضراً أمام أعيننا من خلال الأثر الذي تركه في مكة المكرمة وفي مدينة الخليل الفلسطينية وارتبطت به شعائر الحج.

وحين نقرأ عن الأنبياء في القرآن الكريم فإننا نستحضر التاريخ أمامنا وكأن الزمن لم يقذف بتلك الأمم بعيداً في أعماق التاريخ.

فأين نحن مثلاً من زمن النبي هود والنبي صالح؟ أين نحن من زمن النبي موسى مثلاً؟ الزمن بعيداً ولكن القرآن الكريم يحضره أمامنا ونتعايش معه كأنه حدث بالأمس.

إن جميع الأنبياء الذين ذكروا في القرآن الكريم وُجدوا في المنطقة العربية ومنها انطلقت الدعوة إلى كافة أرجاء الأرض.

وإذا نظرنا إلى الخارطة الجغرافية التي تحدد الأرض التي عاش بها الأنبياء وجدناها تنحصر في الجزيرة العربية بشكلها القديم.

فقوم عاد وبينهم هود ـ وجدوا في الأحقاف وهي منطقة تقع إلى الشمال من عُمان واليمن على أطراف القسم الجنوبي لجزيرة العرب.

وقوم إبراهيم وُجدوا في العراق، وإبراهيم نفسه أمره الله أن يهاجر من العراق إلى سوريا ثم إلى فلسطين، ثم أمره ببناء الكعبة وإقامة قواعد البيت في الحجاز.

وإسماعيل مكث في الحجاز ولم يغادرها ويعقوب وقبله إسحق ويوسف انطلقوا من جوانب مدينة نابلس الفلسطينية التي كانت تسمى شكيم، ومن هناك انتقلوا إلى مصر ومكثوا فيها هم وأحفادهم أكثر من 230 عاماً.

وموسى عليه السلام انطلق من مصر إلى سيناء ومكث فيها 80 عاماً مع بني إسرائيل، أما داود وسليمان وإلياس فمكثوا في أرض فلسطين مدة لا تقل عن مئة سنة، ثم جاء المسيح عليه السلام من فلسطين، ثم بعث الله محمداً (ﷺ) من الحجاز.

وحتى الأنبياء الآخرون لم يغادروا المنطقة فهم جميعاً أبناء هذه الأرض، فيونس وأيوب وذو الكفل وغيرهم لم يُبعثوا في أي منطقة أخرى ولا أي بلد آخر كاليونان وإيطاليا وبريطانيا وأمريكا وغيرها.

إذاً مسرح النبوات كان هنا في هذه الأرض العربية وليس سواها.

لقد بعث أغلب الأنبياء في أقوام لها حضارتها المادية، وقد وصف القرآن الكريم مظاهر هذه الحضارة المادية التي لا يمكن أن تدون إذا هي عادت الأنبياء وحاربتهم.

فقوم هود بنوا إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، وقد قيل إنها شيّدت من الحجارة الضخمة لكن هذه الحضارة أبيدت لأنها خالفت النبوة وتعاليم السماء.

ولننظر إلى حضارة الفراعنة التي يشهد لها العالم بعظمتها ماذا حلَّ بها بسبب أن فرعون وقومه خالفوا فطرة الإنسان في العبودية لله؟ لم تُغنِ الحضارة المادية عن هؤلاء بل كانت وبالاً عليهم ومصائب وكوارث انقلبت عليهم أيضاً.

لننظر كيف وصف القرآن الكريم حضارة هؤلاء العظماء الجبابرة.

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾. (الفجر: 6 ـ 14).

ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾. (غافر: 36).

ويقول تعالى على لسان فرعون: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾. (القصص: 38).

والآثار التي تركها الفراعنة إنما هي دليل على تلك الحضارة المادية العظيمة حسب رأي العلماء والناس، وهي حضارة منذ نشأتها وضع الهدف فيها وانكشف.

فهي قامت على أكتاف العبيد وفقراء الناس وكانت غايتها من أجل أشخاص بعينهم أطلقوا عليهم اسم الفراعنة.

فإذا كان المقياس في مركزية الحضارة، فإن الغربيين يرون أن حضارة مصر أو بابل بنت حضارة مادية عظيمة قد تعجز عنها الحضارات الرومانية واليونانية والغربية بشكل عام.

وما بعث الله الأنبياء إلا للطغاة أمثال الفراعنة، أمثال ملوك بابل والكلدانيين الذين حاول النبي إبراهيم هدايتهم فحاربوه حتى نجاه الله من كيدهم إلى بلد آخر.

معالم النبوة التي يفتقدها الغرب:

عندما نقول إن الشرق العربي مهد النبوات فلابد من أن يكون لهذه النبوات معالم وسمات افتقدت في غيرهم من البشر، لذلك نرى الشرق حتى في أوج انحرافه كان يعترف بالأنبياء ويحاول أهل الشرق دوماً أن ينسبوا أنفسهم إلى هؤلاء الأنبياء مثل ما كان يفعل أهل مكة والجزيرة العربية حين نسبوا أنفسهم إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وقد يقول قائل: إن فلاسفة اليونان جاؤوا بأفكار فكرية عظيمة لا تقل أهمية عن الأفكار الكلية التي طرحها الأنبياء، فإذا كان الشرق العربي أرض الأنبياء فإن اليونان وروما أرض الفلسفة والحكمة، وهذا يوازي ذلك، من حيث العطاء الفكري والتأثير في مسيرة العقل البشري.

لكننا ومن باب الموضوعية لابد لنا أن نفرق كثيراً بين الفلسفة والنبوة فالأنبياء رجال من البشر يرسلهم الله هداية للبشر.

ولابد أن يتصف كل نبي بعاملين مهمين:

العامل النفسي: وهو داخل في نفس النبي أو الرسول، وهذا العامل لا يمكن ملاحظته أو قبوله من خلال شهادة النبي نفسه، بل لابد لتأييد هذه الشهادة من رسالة لها محتوياتها ومدلولاتها المتواترة المنزلة، وظهور النبوة ليس ذاتياً بوحي من نفس الشخص مدعي النبوة تبعاً لخياله أو فكره كما عند الفلاسفة.

العامل الموضوعي: وهو ليس من عند النبي بالذات، إنما هو وحي خارجي ينزل على النبي أو الرسول، وهذا ما لا يتمتع به الفلاسفة مهما بلغت مراتبهم.

فالنظرة الموضوعية للحركة النبوية تتجلى بالفرق بين النبي الموحى إليه والنبي المحترف، فالنبي الموحى إليه يقاوم بعنف فكرة الألوهية القومية للعقيدة الشعبية الوثنية، وتتحلى دعوته دوماً بالثبات على مبدأ الإله الواحد رب العالمين[1].

وما من نبي بعثه الله إلا ومتّعه بصفات خاصة لا يمتلكها البشر، فيه منحةٌ إلهية بل في أساسها تربية إلهية خاصة، فهي توازنُ بين الدنيا والأخرى، وهي تدعو إلى البعد عن كل ما يسيء إلى الأخلاق البشرية والعقل الإنساني، وهي أيضاً تتسم بالإخلاص وعدم الزيغ مهما كانت الظروف، ولا تتغير ولا تتبدل في مبادئها الراسخة، إنها تمزج بين العطاء البشري والعطاء الإلهي، فشخصية أي نبي تتمتع بميزات خاصة وفي الوقت نفسه تتصل هذه الشخصية بعطاءات الله ورسالته.

وإذا نظرنا إلى الفلاسفة الأوروبيين أو الغربيين بشكل عام نراهم لا يتمتعون بهذه الميزات النبوية مهما بلغت أفكارهم من حكمة وكلام.

ولو كان الفلاسفة مثل الأنبياء لما تبنى العالم رسالة المسيح ورسالة الإسلام ولو كانت الأفكار الفلسفية تكفي لبناء الشخصية البشرية بناء عقيدياً وسلوكياً سليماً لظل الغربيون متمسكين بأفكارهم، ولما انحازوا إلى تبني العقائد التوحيدية ورفضوا أفكار الفلاسفة.

وترتبط النبوة بالرسالة والدعوة، فالأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم نفذوا أمر الله سبحانه ولم يحصروا ما أوحى الله إليهم في صدورهم، بل بلغوا الناس الرسالات إما من خلال وحي كتابي، أو من خلال وحي شفوي.

وإذا نظرنا إلى الرسالات التي كلف بها هؤلاء الأنبياء نجدها تنطلق من مبدأ واحد وتتجه إلى غاية أو غايات واحدة.

---

(1) الدكتور عبد السلام التونجي، الإيمان بالأنبياء والرسل، جمعية الدعوة، 1986، ص27 ـ 28.

لقد انطلقوا من مبدأ التوحيد أولاً فهم جميعاً دعوا إلى عبادة الله الواحد الأحد ورفض عبادة الأوثان أو المظاهر الكونية والطبيعية كالشمس والقمر والكواكب والعواصف والبراكين والحيوانات وما شابه ذلك.

فنرى النبي نوحاً يقول لقومه: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. (الأعراف: 59).

ونرى النبي هوداً يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾. (الأعراف: 65).

ونرى النبي صالح يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. (الأعراف: 73).

وماذا قال شعيب لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾. (الأعراف: 85).

وموسى عليه السلام يقول لفرعون: ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. (الأعراف: 104).

وعيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾. (آل عمران: 51).

وإبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾. (العنكبوت: 16).

أما الرسول محمد (ﷺ): ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: 213 ـ 214).

واشترك الأنبياء جميعاً بأنهم دعوا إلى ديانة التوحيد لإنقاذ الناس من الشرك ومن عذاب الله وعدم طلب الأجر من أقوامهم، فهم يدعون الناس لأجل الخلاص من الكفر والمفاسد والظلم وليس لأي مكسب دنيوي.

وتميزوا جميعاً بالصبر على إيذاء أقوامهم على الرغم من تهديد تلك الأقوام لهم بالقتل أو الطرد أو التشريد.

إن هذه السمات الخاصة بالنبوة لم يختص بها الفلاسفة والمفكرون الغربيون لأنها سمات أرادها الله لهؤلاء الأنبياء، حتى يكونوا الصفوة من البشر وحتى يكونوا على قدر المسؤولية الملقاة على عاتقهم.

ومرة أخرى نقول: إن المنطقة العربية اختُصت بالنبوة، وصدّرت إلى العالم الرسالات التوحيدية وتعاليم الله سبحانه، وهي تعاليم كثيرة لا تُحصى وكلها تدور حول سعادة الإنسان وإنقاذه من فحش المادة وسيطرتها على شؤون الحياة.

وإذا ارتبطت النبوة بالرسالة فإنها ارتبطت بكتب سماوية أنزلت على بعض الأنبياء، لذلك يقولون إن الديانات التي منحها الله الكتب السماوية تسمى الديانات السماوية، لارتباطها بتلك الكتب المنزلة من السماء.

اليهود يقولون: إن التوراة كتاب مقدس وهو كلام الله.

والنصارى يقولون: إن الأناجيل كتاب مقدس وهي كلام الله.

وبذلك يقول هؤلاء وهؤلاء إنهم ينتسبون إلى الديانة السماوية كون هذه الكتب موحى بها من الله للأنبياء.

لن نتوقف عند ما يؤمن به اليهود والنصارى حول هذه الكتب، إنما سنتوقف عند كتاب الله القرآن الكريم، لنقول بعد الحوار: إن ما جاء به القرآن الكريم لم يأتِ به ولا كتاب لا في القديم ولا في الحديث، فهو كلام الله الخالد، وهو الكتاب الأول والآخر الذي لا يضاهيه كتاب. وجميع الخلق عاجزون عن الإتيان بمثله، لذلك نرى أن ما خصّه الله سبحانه لهذه الأمة القرآنية افتقده الآخرون، فأين مركزية الغرب من عطاء الله القرآني، وأين مركزية الغرب مع كل ما صدر عنه من كتب، من هذا الكتاب السماوي الذي شهد به المؤمنون والكافرون على أنه كتاب لا مثيل للغته وأسلوبه، وتشريعه وعقيدته وحديثه عن الماضي والحاضر والمستقبل، فهو كله إعجاز مدهش يقف العقل دونه صاغراً مندهشاً تخرُّ له الجبال قبل القلوب، ولو كان من عند بشر لرأيت التناقض بلغته، لكنه كلام الله الخالد الذي لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا أمامه، القرآن هو

الكتاب الذي نزل من السماء ليحرر العقل البشري من تلك القيود التي كان يرسف فيها باسم الدين، وهو أول وآخر كتاب يعمل على القضاء على الدولة الدينية وإحلال الدولة المدنية محلها، الدولة التي يصعد رئيسها إلى الحكم باسم الشعب وباختيار الشعب وليعمل لصالح الشعب[1].

وهو الكتاب الذي لفت الأنظار والعقول إلى آيات الله الكونية وهذا ما تفتقده الكتب الأخرى، فهو الذي يعلمنا كيف خلق الله السموات والأرض على نظام عجيب متماسك منذ ملايين السنين وهو الذي يعلم عقلنا ما معنى اختلاف الليل والنهار واختلاف الأيام والفصول ومواقع الشمس في الصيف والشتاء، ثم الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، ونزول الأمطار التي تحيا بها الأرض، وإحياؤها بالماء المنزل من السماء، ثم تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض.

لقد تحدث القرآن عن الماضي واستحضره أمام أعيننا تحدث عن آدم والجنة وعن نوح والفلك، وعن إبراهيم وبناء الكعبة، وتحدث عن الفراعنة والمجوس، والصابئة، وتحدث عن أقوام ابتعدت الشقة الزمنية بيننا وبينها بآلاف السنين، ولولا هذا القرآن لما عرفنا عنها شيئاً، أو ربما جاءتنا مشوهة مثل فعل كتبة التوراة في كتابهم المحرف.

وتحدث عن المستقبل الدنيوي والمستقبل الأخروي، فبشّر بالنصر للموحدين على المشركين بدخول المسجد الحرام، ودخول الأقصى، وبشّر المؤمنين بجنات ونعيم والكافرين بجهنم والنار والجحيم.

وأي كتاب كالقرآن الذي يضع منهجاً واضحاً في الاستدلال والاهتداء من خلال التبصر العقلي، وإيقاظ الفكر للنظر في آيات الله وفي ملكوته، وذلك للوصول إلى معرفة الله معرفة اليقين.

---

(1) د. محمد أحمد خلف الله، القرآن وتحرير العقل البشري، القرآن نظرة عصرية جديدة، ص7.

وأي كتاب آخر يقرع الناس الذين لا يستخدمون عقولهم وحواسهم في النظر أو السمع كي يتدبروا آيات هذا الكون وهذه النفس وهذا التاريخ المديد؟.

لقد رزقنا الله السمع والبصر والفؤاد لنتدبر وننظر ونعقل ونفكر وكلما دق نظرنا وصح بحثنا كلما ارتفعت معارفنا وسمت نفوسنا وزدنا إيماناً ويقيناً[1].

مركزية الغرب دافع أساسي لموقف المفكرين الغربيين من القرآن الكريم:

وفي الواقع فإن التقابل بين نظرية مركزية الغرب والمشروع الحضاري الإسلامي جعل كبار الباحثين والمستشرقين المعاصرين يقفون موقفين متناقضين من القرآن الكريم.

ونعتقد أن نظرية مركزية الغرب كانت دوماً الدافع النفسي للواقفين من الإسلام والقرآن موقفاً عدائياً، وهم في النتيجة محكومون لهوى تعصبي يريدون من ورائه التقليل إلى حد الإهانة من أهمية الإسلام والقرآن بمقابل المسيحية الغربية.

هناك من يقف موقف العداء السافر للإسلام ومشروعه الحضاري مثل ماكس فيبر وماكسيم رودنسون، وفرنسيس فوكوياما، وصموئيل هنتنغتون، وهناك من العلماء من أدركوا أن الإسلام ومشروعه الحضاري لا يتعارض مع العلمية والعقلانية والموضوعية وإعلاء قيمة الإنسان وهي الأمور التي دافعوا عنها، وكان هذا الإدراك في أواخر أيامهم مثل كنط، وسبنسر، وجاك بيرك، وأوليفيه كاريه.

ماكس فيبر ورودنسون يرى كل منهما أن الإسلام لا يحقق التعبئة الاقتصادية للجماهير ولا يحفزها للعمل والإنتاج وتحقيق الإنجاز، ويرى رودنسون أن محاربة الإسلام للربا وفائدة البنوك يعد معوقاً اقتصادياً.

أما فوكوياما فيرى أن أهم التحديات التي تواجه النظام الرأسمالي هو التيارات الدينية والصحوة الأصولية عند المسلمين والمسيحيين واليهود، وهذه

(1) الدكتور علي حسن عبد القادر، التدبر في آيات القرآن، القرآن نظرية عصرية، ص247.

التيارات تعكس ظاهرة الخواء الروحي والقيم وعدم النجاح في إشباع الجوانب الروحية عند الإنسان.

ويركز فوكوياما على مقولة إن الإسلام ليس له جاذبية عند غير المسلمين وبهذا لن يتحول إلى حركة عالمية.

أما هنتغتون صاحب كتاب صدام الحضارات، فيرى أنه لابد من الصدام الدموي بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية.

ويرى أن الحضارة الإسلامية تمثل الخطر الأكبر على الحضارة الغربية وتحمل عناصر العنف والإرهاب، وينظر إلى الإسلام على أنه العدو الأكيد بعد انهيار الشيوعية.

أما جاك بيرك فهو يرى أن الإسلام سبق الثورة الفرنسية في طرحه المبادئ الأساسية التي قامت على أساسها الثورة وهي الحرية والإخاء والمساواة.

ويرى أن الإسلام أكثر الديانات انفتاحاً وتسامحاً تجاه غير المسلمين، والإسلام دين عالمي لا يرتبط بجنسية محددة فكل الشعوب الإسلامية تجتمع على الإيمان بالعقيدة[1].

على أية حال فإننا نرى أن الغرب الذي انقسم بين حاقد على الإسلام والقرآن، ومنصف إلى حد ما لا يضير الإسلام والقرآن في شيء، فالإسلام دين الله الذي اختاره للإنسانية، والقرآن كتابه السماوي الذي حفظه الله ليبقى دستورياً حياتياً وأخروياً لبني البشرية، والنبي محمد (ﷺ) خير البشر إن رضي الغرب أو أبى.

إن الغرب الذي افتقد للنبوات وللكتب السماوية يرى نفسه ناقصاً أمام هذا العطاء الإلهي لذلك كان الأكثرية من المستشرقين أمثال جب ونولدكه وغولد زيهر وغيرهم على عداء مستمر للإسلام ولكتاب الله ولنبي الإنسانية، ونعتقد أن الادعاء بمركزية الغرب ادعاء يتساقط ويتهاوى أمام حقيقة العطاء الديني الذي منحه الله سبحانه للشرق العربي الإسلامي.

---

(1) القراءة الغربية للقرآن الكريم، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ندوة 2009.

ونعتقد أن المستشرقين لو أنصفوا في دراساتهم ونظروا نظرة إنسانية محترمة لما وقفوا من القرآن ورسالة الإسلام هذا الموقف العدائي الذي ابتدأ منذ زمن بعيد ومازال يفعل فعله في بعض الأوساط الغربية الحاقدة والعنصرية.

أوروبا والمسيحية:

لاشك أن الغرب بشكل عام كان وثنياً قبل تبني المسيحية التي بشّر بها بولس، ولكي ندرك طبيعة أوروبا الدينية لابد لنا من الاطلاع على بعض المعتقدات الدينية التي سادت فيها، على الرغم من أننا أوجزنا في صفحات سابقة عدة قضايا تتعلق بالحضارة الأوروبية، ومنها الجانب الثقافي الديني.

وحتى نطلع أكثر على المسيحية التي تبناها الغرب لابد لنا من الوقوف عند بعض المؤثرات الوثنية في هذه العقيدة.

فالنصرانية كما جاء بها السيد المسيح عليه السلام نادت بالتوحيد، وكان المسيح نبياً مثل بقية الأنبياء، وأرسل إلى بني إسرائيل ليثنيهم عن فسادهم وإفسادهم؛ لكن بعض المدسوسين على هذه العقيدة حولوها من وحدانية إلى وثنية بصورة ما، فقالوا بالتثليث وبألوهية المسيح.

لقد كان اليهود موجودين في أوروبا منذ العصور اليونانية والرومانية، ولكن هذه العقيدة كانت مغلقة ومنغلقة، فلم يدخلها إلا القليل من الغربيين والحالة الفريدة في انتشار اليهودية في أوروبا هي حالة مملكة الخزر، عندما فرض ملكها على شعبها اليهودية بالقوة، فتهوّد الآلاف ثم بعد أن ضعفت هذه المملكة وهوجمت انتشر اليهود الخزريون في أنحاء أوروبا، وشكلوا بعض التجمعات الكبيرة في روسيا وبولونيا وغيرهما من البلاد.

عندما بدأ من يُسمَّوْن بالرسل بالوصول إلى البلاد الأوروبية كانت الإمبراطورية الرومانية تتبع العقائد الوثنية وتفرضها على كل البلاد الواقعة تحت قوتها.

اضطهد المسيحيون الأوائل وقُتل عدد كبير منهم إلى أن جاءت بداية القرن الرابع الميلاد عندما تبنى قسطنطين المسيحية وفرضها على رعايا الإمبراطورية.

لقد جاء المسيح عليه السلام ليتابع مسيرة التوحيد التي سار عليها الأنبياء الذين بُعثوا قبله وظل تلامذته الأولون على نهجه التوحيدي إلى أن أخذ بولس بحرف هذه العقيدة عن توحيدها واخترع عقيدة جديدة لا تمت بصلة إلى تعاليم المسيح الأساسية. وعندما ننظر إلى المسيحية الغربية نراها مسيحية بولس وليست نصرانية المسيح عليه السلام وحوارييه.

لكن السؤال المطروح أمامنا هو لماذا تبنى قسطنطين المسيحية، وما هي الظروف التي أحاطت به من جوانبها المتعددة السياسية والاجتماعية والدينية؟.

لقد اعتقد الإمبراطور الروماني قسطنطين بأن المسيحية سوف تزوده بوسائل سياسية وعسكرية أكثر قوة.

تقول مصادر التاريخ الموثوقة إن قسطنطين أمر بإعدام ابنه وبإلقاء زوجته بالماء الذي يغلي وهي حية، ويقال إن قسطنطين تحول إلى المسيحية عندما كان على فراش موته واعترافه بالمسيحية كان مجرد وسيلة للتغلب على التمزق داخل الإمبراطورية الرومانية.

يقول وولترنيغ في كتابه الهرطقات:

حصل قسطنطين الذي عالج المسائل الخلافية الدينية من وجهة نظر سياسية محضة على الإجماع بنفي جميع الأساقفة الذين رفضوا التوقيع على صيغة الإيمان الجديدة[1].

ومثلت عقيدة التثليث الجديدة وحاكت كثيراً صورة تأليه قديمه حوت قيمة الخلاف وتضمينه.

لقد جاءت المسيحية الغربية متجاوبة مع الوثنية الأوروبية القديمة، لذلك وجد قسطنطين ومن تبعه في تبني المسيحية التثليثية تجاوباً أكيداً مع الوثنية، فلنتصور أن تاريخ ميلاد المسيح الذي ثبتته المسيحية الغربية وهو الخامس والعشرون من شهر كانون الأول هو في الأساس عيد ميلاد الإله ميثرا، وهو

(1) هيلين إيلربي، الجانب المظلم في التاريخ المسيحي/ 35.

القريب من الانقلاب الشتوي، وكان معروفاً أن الرعاة الذين شهدوا ميلاد ميثرا يشاركونه فيما يسمى العشاء الأخير قبل عودته إلى السماء.

ولنتصور أيضاً أن عودة ميثرا ترتبط بصعود الشمس إلى السمو في الاعتدال الربيعي الذي أصبح عند المسيحيين موعد عيد الفصح المسيحي، وقد استولى المسيحيون على معبد الكهف المكرس لميثرا فوق تلة اللاتيران عاملين منه مقر كرسي الكنيسة الكاثوليكية.

حتى عندما أقرت المسيحية تقديس مريم لأنها إلهة أم إله، أصبحت تشبه وجوه الربّات الصنميات، وأصبحت مثل إيزيس وحورس، وجونو ومارس وسيبل وأتيس ونيث ورع.

ما يهمنا من هذا الحديث المختصر حول تبني قسطنطين والغرب المسيحية هو أن ما جاء به المسيح عليه السلام ليس ما اخترعه بولس وليس ما تبناه قسطنطين لذلك نقول إننا نتهم الغرب بتشويه العقيدة التوحيدية النصرانية، لقد قضى الله سبحانه أن يكون الأنبياء والنبوات في المنطقة العربية وتشع عقيدتهم إلى البشر والناس، لكن الغرب رفضوا منذ البداية التسليم بذلك، لذلك اخترعوا عقيدة وثنية جديدة أطلقوا عليها المسيحية، فأي مسيحية هذه التي تبيح ما حرّمه المسيح؟ وأي مسيحية هذه التي تقوم بحروب إبادة لبني البشرية ضاربة بعرض الحائط تعاليم المسيح بالتسامح والمحبة والتعايش الأخوي بين الناس؟.

إن الشرق العربي يفتخر بأن الله سبحانه منّ عليه بالتوحيد والأنبياء والرسالات الخالدة، ولكنّ الشرق العربي يرفض أن تُسرق العقائد كي تشوّه وتُحرّف عن جوهرها وحقيقتها.

إن سقوط الحضارة الغربية وتساقطها الأخلاقي يكمن أساساً في هذا التحريف للعقائد التوحيدية، وخاصة العقيدة النصرانية الأولى.

والادعاء بمركزية الغرب يصبح سخرية ومهزلة، نحن بفضل الله ننشر ديانة التوحيد وهم بفضل الشيطان يحرفون هذه العقيدة، فتصبح وثنية شيطانية فهل هذه

حضارة تستحق الاحترام؟ نحن نشك بذلك أو أننا نؤمن به إيماناً راسخاً، إن حضارة تقوم على حرف العقائد الكبرى لا تستحق الاحترام بأي وجه من الوجوه، أو هي تكسر تسميتها بالحضارة وتُلغيها.

لقد كان بالإمكان أن يعود الغربيون إلى جوهر عقيدة المسيح ليدركوا عقيدة التوحيد ولكن يبدو أن ما لاءمهم وما دغدغ نفوسهم هو ذلك التجاوب الكبير بين وثنياتهم التي كانوا عليها وبين المسيحية التي اخترعوها، فجعلوا فيها المسيح رباً أو ابناً للرب، ونشروا ما يسمى بالتثليث مجاراة للتثليث الذي كانت عليه كثير من الشعوب الوثنية.

لقد طال التحريف شخصية المسيح عليه السلام، وشخصية أمه العذراء، وطال التحريف الأناجيل التي أطلقوا عليها الكتاب المقدس، وما هو بمقدس، إنما هو تأليف بشري اجتهد في تأليفه متّى ومرقص ولوقا ويوحنا، وحرموا ما حلل المسيح وحللوا ما حرّمه، وبهذا فإن عقيدتهم المسيحية بعيدة كل البعد عن عقيد المسيح وإنجيل المسيح الأصلي.

لقد اعترف الكثيرون من مفكري الغرب بأن المسيحيين قاموا بتجميع التوراة ليس من أجل وضع الأناجيل والأسفار مع بعضها بعضاً بل لتشجيع المظهر الرسمي الموحد، وبمنع وتحريم وحرق الكتابات الأخرى أعطت الكنيسة الكاثوليكية الانطباع نهائياً بأن هذه التوراة والأناجيل القانونية الأربعة تمثل وحدها فقط وجهة النظر المسيحية، ومع ذلك ففي تاريخ متأخر وهو عام 450م قال ثيودور أوف سيروس بأنه كان هناك ما لا يقل عن مائتي إنجيل مختلفة متداولة في أسقفيته، وقد اعترفت الموسوعة الكاثوليكية بأن وجود عهد جديد قانوني لا يمتلك قاعدة في التاريخ[1].

وكان الفيلسوف الروماني سيلسيوس شاهداً على أعمال التزييف في الكتابات المسيحية التي كانت قد تمت في القرن الثاني الميلادي وقد قال في ذلك: وأنتج

(1) هيلين إيليربي، الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، ترجمة د. سهيل زكار، ص31.

بعضهم كما لو كانوا في حالة سكر شديد رؤى وأحلاماً صادرة عن قناعة ذاتية وأعادوا تكوين إنجيلهم وتشكيله من أول شكل من أشكال كتابته وتصنيفه، فلقد أعادوا تكوينه وشكله حتى يكون قادراً على رفض الاحتجاجات التي قدمت ضده[1].

ولم تنجح المحاولات في سبيل توحيد مظهر العقيدة وتكوينها تماماً حتى إن الأناجيل الأربعة القانونية يتعارض واحدها مع الآخر، فإنجيل متى يخبرنا بأن يسوع كان من أصل أرستقراطي منحدراً من جماعة أكثر تواضعاً، ويقول مرقص بأن يسوع قد ولد لنجار فقير[2].

وقد أشار الباحثون الثلاثة ميشيل بيجنت وريتشارد لي وهنري لنكولن في كتابهم المشترك الدم المقدس الكأس المقدسة إلى سؤال خطير يقول:

كيف يمكن للأناجيل أن تكون غير كاذبة عندما يكذب أحدها على الآخر؟[3].

ولما كانت الكنيسة قد حرفت الإنجيل وحرفت المسيحية عن عقيدة التوحيد كان من المحتم أن تبقى الغاية القصوى للكنيسة هي الحفاظ على مصالحها فحسب، ولهذا السبب اصطدمت هذه المصالح مع أي تقدم سياسي اجتماعي وعلمي لأن التحريف الذي طال المسيحية جعلها عدوّة لكل شيء يخرج من خارج دائرتها.

لقد كان للكنيسة أثرها المدمر على المجتمع، فبعدما تسلمت الكنيسة القيادة تهاوت الأعمال والنشاطات في ميادين الطب والتقنيات والعلوم والتعليم والتاريخ والفن والتجارة، ودخلت أوروبا عصور الظلام، ومع أن الكنيسة جمعت ثروة كبيرة جداً خلال هذه القرون لكن كل ما يتعلق بالحضارة قد اختفى[4].

---

(1) المرجع السابق، ص32.

(2) المرجع السابق، ص32.

(3) بيجنت وريتشارد لي ولنكولن، الدم المقدس الكأس المقدسة، الجزء الثاني، ص317 ـ 323.

(4) الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، سبق ذكره، ص55.

ولعل أكبر الجرائم التي ارتكبها الغرب وعلى رأسه الكنيسة الكاثوليكية شن حرب قذرة ودموية باسم المسيح والمسيحية، ولم يعرف التاريخ حرباً أخذت صفة التقديس الديني مثل الحروب الإفرنجية الصليبية.

فلنتصور شعار هذه الحرب التي بدأت منذ عام 1095، فقد كان الشعار هو الصليب، والغاية تحرير قبر المسيح من الكفرة المسلمين، أما الباطن فهو التخلص من أزمات الإفلاس الكنسية، ودفع الفلاحين والطبقات المسحوقة للنظر إلى تنفذ الشرق وشحن الشرق ودرء ملامح ثورتهم ضد النبلاء ورجال الكهنوت.

وإذا كان الغربيون يعتزون بحضارة غربية فها هي مفرزات حضارتهم.

إنها حرب رفعت راية الصليب وباسم صليبها تقام المجازر الجماعية وحروب الإبادة واحتلال أراضي المناطق العربية واضطهاد سكانها، واستغلال أراضيها وموانئها وثرواتها، لتعود بالمال الوفير على شعوب أوروبا قاطبة.

ومع هذا التاريخ نبدأ رحلتنا لنطلع على مفرزات الحضارة الغربية بدءاً من القرن الحادي عشر.

في عام 1095 دعا البابا أوريان الثاني فرسان أوروبا إلى الاتحاد والزحف إلى القدس لتخليص الأرض المقدسة من المسلمين الكفرة.

وقبل أن يأخذ التاريخ ويرينا ما الذي فعله الإفرنج بالشرق لابد لنا أن نلتفت إلى هذا النداء البابوي الذي أطلقه أوريان الثاني.

(البابا أوريان الثاني بابا الكنيسة الكاثوليكية في روما، ألقى خطابه في فرنسا ودعا فرسان أوروبا إلى الاتحاد والزحف إلى تخليص روما أو برلين عفواً لتخليص القدس من المسلمين والكفرة؟).

أوريان الثاني يعتبر نفسه مسيحياً بامتياز لكنه لا يعرف شيئاً عن المسيح الفلسطيني المقدسي الناصري.

أوريان الاثني وثنيٌ بامتياز لأنه منحرف ودجّال لأنه لا يعرف شيئاً من عقيدة التوحيد التي نادى بها المسيح عليه السلام.

أوربان يدعو الوثنيين الأوروبيين للزحف على الشرق ليس لحماية دين المسيح بل لاحتلال الأرض وزيادة الثراء بين النبلاء والفرسان.

المسيحيون الغربيون الوثنيون مؤمنون والمسلمون في بيت المقدس كفرة.

أوربان الدجال يريد تخليص قبر الرب من الكفرة وهو لا يعرف الرب ولا يعرف المسيح وهو بالمحصلة يدعو لغزو فلسطين وبيت المقدس، أي غزو الأرض العربية لو كانت القدس روما أو برلين أو باريس لقلنا قد يكون معه الحق، ولو كان المسيح فرنسياً أو إيطالياً أو بلجيكياً لقلنا ربما معه الحق.

فما علاقتك يا سيد أوريان بالقدس والمسيح، المسيح ابن المنطقة العربية والمسيح نبي مبجّل مكرم مثله مثل سائر الأنبياء لدى المسلمين، والمسيحيون العرب والشرقيون أولى الناس بالسيد المسيح بعد المسلمين، فأين أنت من لغة المسيح وهل تفهم يا أوريان اللغة التي نزل بها إنجيل المسيح، أم أنك ومن لفَّ لفك اخترعتم أناجيل حسب مذاقكم، وأذواقكم الوثنية واخترعتم مسيحاً حسب تصوركم الوثني المسبق.

إنكم أبعد من أن تكونوا على نهج المسيح، فأنتم تبنيتم مسيحية بولس والبابوات ولم تعرفوا شيئاً عن عقيدة المسيح، الغريب يا أرويان الثاني إنك مجهول الأصل ويُشك في أنك ابن حلال حسب ما قالت مصادركم التاريخية الغربية، وليس مصادرنا، ومادمت كذلك فلن يكون مستغرباً أن تغطي على شرفك المهدور بإصدار أمرك بغزو بلاد الشرق، بلاد المسيح والأنبياء وبلاد محمد (ﷺ).

وصف المؤرخ ريموند أف أغولير *Aguiler* مشهد الذبح الذي أجرته عصابة من الصليبيين بحق المسلمين في القدس عام 1099م فقال:

«شوهدت أشياء رائعة فقد جرى قطع رؤوس أعداد من المسلمين ورُمي آخرون بالنشاب أو أرغموا على القفز من الأبراج وجرى تعذيب آخرين لعدة أيام ثم أُحرقوا بالنيران وكان الذي يشاهد في الشوارع أكواماً من الرؤوس والأيدي والأرجل وكان الإنسان يتجول في كل مكان وسط جثث الرجال والخيول

وخاضت الخيول في المسجد الأقصى بالدماء حتى ركبها لا بل حتى أفواهها، لقد كان حكماً ربانياً عادلاً أن يمتلئ هذا المكان بدماء غير المؤمنين»[1].

فلنتصور هذا الكاتب الشاهد ماذا يقول:

شوهدت أشياء رائعة: لأن الدماء والرؤوس والأيدي والأرجل المقطعة لوحة فنية خالدة لذلك يندهش فيقول عن هذه المناظر الدموية: رائعة.

ولننظر ماذا يقول: لقد كان حكماً ربانياً عادلاً.

فهل هذا الشاهد الكاتب يعرف الرب أو الإله، ومن هو هذا الرب الذي يحكم بقتل الأطفال والشيوخ والنساء المسالمين.

عذراً فإن رب هذا الشاهد ورب البابا ليس سوى إله وثني متعطش للدماء، فويلٌ لمن ينسب إلى المسيح أنه راضٍ عن هذا الذبح بأبناء دينه وقومه، وويلٌ لمن ينسب للرب العادل الرؤوف الرحيم هذا الإجرام الذي لم يشهد التاريخ مثله.

يقول المؤرخ البيزنطي ينقيطيا كونياتس: إنه حتى المسلمين أكثر رحمة وشفقة مقارنة بهؤلاء الرجال الذين يحملون الصليب على أكتافهم[2].

ولو كانت المسألة قد توقفت عند المسلمين الذين اعتبرتهم الكنيسة الكاثوليكية أعداء لها لهان الأمر، لكن هذه الكنيسة الكاثوليكية أظهرت العداء للكنيسة الشرقية وحاربتها.

فتصوروا معنا كيف قام أفراد الحملة الصليبية الأولى في عام 1096م بنهب بلغراد التي كانت المدينة الإمبراطورية الثانية بعد القسطنطينية.

وفي عام 1042م أرسل الباب أنونسنت الثالث جماعات من الصليبيين إلى القسطنطينية وانقضّ جند المسيح الكذابون على القسطنطينية بروح انتقامية يغتصبون وينهبون المدينة ويحرقونها وتبعاً للمؤرخ غيوفري فيلهاردين لم يحدث قط منذ خلق العالم أن أخذت مثل هذه الأسلاب كثرة من مدينة من المدن، وقد علّق

(1) الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، ص79، سبق ذكره.

(2) المصدر السابق، ص81.

الباب على ذلك: نحن نعتقد بأن الإغريق قد عوقبوا من خلال الصليبيين بموجب حكم عادل.

فبالنسبة للبابا كان اغتصاب القسطنطينية عقوبة عادلة لأنها رفضت الانصياع والطاعة للكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

فهذه هي الحضارة الأوروبية في القرون الوسطى، قتلٌ وإبادةٌ للمسلمين، قتل وإبادة للمسيحيين الأرثوذكس، وقتل وإبادة لليهود الغربيين.

اليهود الذين يتحالفون في ظل الحركة الصهيونية مع الغرب اليوم، ويصنعون سوية نظرية التفوق العنصرية ونظرية مركزية الغرب كانوا أكثر الأوروبيين تعرضاً للاضطهاد والقمع.

لقد أصبحت المذابح المنظمة والغارات على الكُنس والأحياء اليهودية وتدميرها مظهراً عاماً من مظاهر الاستقامة والصلاح المسيحي.

لقد كان اليهود أهدافاً سهلة لأنهم لم يُحتضنوا من قبل المجتمع المسيحي[1].

ومع ذلك يجب علينا أن نتذكر عشرات المذابح التي أجراها الإفرنج في المنطقة العربية فلم تسلم مدينة من المدن من حرب إبادة شنها الصليبيون الهمج في أنطاكية ومدن الساحل الشامي، طرابلس وصيدا وصور وعكا وغيرها.

وتأتي محاكم التفتيش في إسبانيا الشاهد الثاني بعد الحروب الصليبية على حضارة أوروبا المسيحية تلك الحضارة التي توحشت إلى أقصى الحدود ولطخت وجهها عاراً لما اقترفته من جرائم بحق الإنسانية.

وهذه المحاكم لم تكن بعيدة عن تحركات الكنيسة الكاثوليكية، فكما قام الصليبيون بمذابح جماعية في القدس وأنطاكية وغيرها فقد استمر تنفيذ مخطط الإبادة ضد المسلمين إبان حلول الضعف في الدولة العربية في الأندلس.

---

(1) الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، ص84.

ولعل الكثيرين أغفلوا وتغافلوا عن أساليب القتل والتعذيب التي مارسها المسيحيون الكاثوليك الإسبان بحق المسلمين واليهود في الأندلس، وتوسعت هذه المحاكم لتشمل آخرين، ونتج عنها إصدار قرارات مسيحية دينية بالاسترقاق واستباحة الرق والعبودية.

يقول قاضي محكمة التفتيش فرنسيسكو بيتا عام 1578: ينبغي أن نتذكر أن المقصد الأساسي من المحاكمة وتنفيذ الإعدام ليس إنقاذ الأرواح العائدة للمُدانين بل الوصول إلى الصلاح العام وزرع الخوف في الآخرين.

ويقول القاضي برنارد غي: وهو أيضاً أحد القضاة: وكذلك ينبغي ألاّ يناقش الرجل غير اللاهوتي مع غير المؤمن، بل أن يغرس في أحشاء الرجل ويدفعه بقدر ما يمكن أن يُحرق[1].

وقد أصدر البابا إينوسنت الثالث قراراً يقول فيه: إن أي إنسان يحاول بناء رأي شخصي عن الرب يتعارض مع عقيدة الكنيسة ينبغي حرقه من دون شفقة.

لقد دمرت محاكم التفتيش الاندماج الاقتصادي بالإضافة إلى الاستيلاء المباشر على أملاك تجار ناجحين باتهامهم بالهرطقة.

ولعل أخطر ما في هذه المحاكم قانون العقوبات التي لم تشهده أية أمة أو أي دولة. ومن هذه العقوبات الحرق للأحياء بعد أن يربط المتهم إلى عمود وتُشعل فيه النيران، وكان في إحراق الناس بالنار حتى الموت طريقة لتجنب إراقة الدماء. ومن العقوبات السجن المؤبد والتقييد بالأغلال، ثم التجويع حيث لا يُعطي للسجين إلا القليل جداً من المأكل والمشرب، وغالباً ما يموت السجناء في معتقلاتهم.

وقد اخترع قاضي محكمة التفتيش كل وسيلة يمكن تصورها لإنزال العذاب وإحداث الألم، بتقطيع الأوصال ببطء وبتغيير أوضاع الجسد.

---

(1) المرجع السابق، ص91.

وكان التعليق والرفع والتعذيب في الماء من أكثر الطرائق شيوعاً، وكان الضحايا يُغلفون ويدلّكون بشرائح من لحم الخنزير، أو يُطلون بالدهن ويجري حرقهم ببطء وهم أحياء.

وبُنيت أفران لقتل الناس وقد ظهرت هذه الأفران سيئة السمعة في القرن العشرين، حيث اتهم الألمان النازيون بذلك، والواقع أنها استخدمت من قبل محاكم التفتيش المسيحية، حيث تم دفن الناس وهم أحياء وكان يطلق على عملية الحرق *Auttoda* ومن نتائج محاكم التفتيش إجبار اليهود والمسلمين على اعتناق المسيحية الغربية، ومن لم يرضَ بذلك يُعذب ثم يحرق بالنار حياً.

ومن نتائج ذلك هرب الآلاف من اليهود من الأندلس باتجاه المغرب العربي وأوروبا الشرقية وبعض البلاد العربية، وكذلك تشرد جراء هذه المحاكم مئات الآلاف من المسلمين الأندلسيين بعد أن فقدوا أيضاً الآلاف من ذويهم وأبنائهم.

ولعل هذه المحاكم التي قادتها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية من أسوأ ما عرف تاريخ البشرية من الوحشية والبربرية وذلك باسم الدين وباسم الحضارة الأوروبية الغربية.

إذاً أين هي المفاخرة بمركزية الغرب الحضارية؟ وهل يغفر التاريخ الحضاري هذه المجازر وذلك التغذيب وتلك السنين السوداء المعتمة؟ هل ينسى الغرب اليوم أن تاريخ حضارتهم الدينية ملطخ بالعار الذي لا تغسله مياه البحار السبعة ولا عطور فرنسا ولا أزهارها.

البروتستانتية الغربية والتحريف المسيحي الثاني:

بدأت عقيدة المسيح عليه السلام توحيدية، وجاء الغربيون فحرفوها كليّاً عن التوحيد، وأصبحت المسيحية التثليثية عقيدة جل الغربيين، وكان التحريف الأول عندما أقر قسطنطين إمبراطور روما ومن معه من الكهنة الوثنيين أن المسيح والله

والروح القدس واحد في ثلاثة، وهكذا انطلقت مسيرة الوثنية الجديدة حتى عمت أوروبا ثم انتقلت إلى أمريكا.

ومع بداية القرن السادس عشر ظهرت حركة مسيحية أطلقوا عليها الحركة الإصلاحية باعتبار أنها أصلحت ما فسد في الكنيسة الكاثوليكية.

ولكن هذه الحركة بدأت متمردة على بعض الأمور التي كانت سائدة، وخاصة صكوك الغفران الكاذبة، وتصرفات الكنيسة حيال محاكم التفتيش، والاضطهاد والقمح الذي مُورس بدءاً من القرن العاشر وحتى الخامس عشر.

لكن هذه الحركة وقعت في مطبات وأمور لا يقبلها منطق ولا عقل، بل إن هذه الحركة بالغت في تحريف المسيحية وتجاوزت في تحريفها الكنيسة الكاثوليكية، ولعل أخطر ما أقدمت عليه الكنيسة البروتستانتية التي لا تخضع للبابا والمراتب اللاهوتية التفرقة العنصرية الفجّة.

لقد أقرَّ مارتن لوثر الفوارق بين الذكر والأنثى وبين عرق وعرق وبين عقيدة وعقيدة، ولذلك عمد مارتن لوثر في بداية انطلاقته إلى الدعوة لاضطهاد اليهود وقد آمن بأنه ينبغي استعبادهم أو الإلقاء بهم خارج الأراضي المسيحية، وأنه يتوجب إحراق أحيائهم وكنسهم.

وجاء بعده السويسري (جون كالفن) الذي كتب في منتصف القرن السادس عشر ما نصه: إن المبدأ السرمدي الذي قرر الرب به الذي سوف يصنعه مع كل إنسان هو أنه لم يخلقهم سواسية بل عين بعضهم لحياة أبدية وعيّن آخرين لإدانة خالدة. وقد أسس كالفن في جنيف مدرسة لاهوتية طاغية بعنف وقوة متناهية ولعل أحسن ما يمكن تذكره هو إحراق الطبيب المعروف والواسع الشهرة مايكل سيرفينوس بسبب رفضه آراء المسيحية ووجهات نظرها[1].

(1) المصدر السابق، ص115.

ومع اشتداد بعض الحملات المسيحية الأوروبية انقلب مارتن لوثر على رأسه وراح يتشدد تجاه اليهود الذين كان مع بداية كهنوته البروتستانتي يدافع عنهم دفاع المستميت.

كان مارتن لوثر يتوقع أن ينضم اليهود إلى الدعوة المسيحية الجديدة أي البروتستانتية، ولكنه عندما رآهم لا يستجيبون لدعوته صبَّ جام غضبه عليهم وأشار على السلطات الألمانية أن يعاملوهم بأسوأ المعاملات، ومنها: إشعال النيران في معابدهم ومدارسهم، ودفن ما لا يحترق وتغطيته بالتراب بحيث لا يرى أحد مرةً أخرى حجراً أو رماداً لهم، ومنها ما عبر عنه لوثر بقوله: إنني أنصح بإزالة منازلهم أيضاً وتدميرها لأنهم يتابعون في داخلها نفس الأهداف التي يتابعونها في معابدهم، وبدلاً من ذلك يمكن إسكانهم تحت سقف في جرن مثل الغجر، فإن هذا سوف يذكرهم بأنهم ليسوا سادة في بلادنا كما يتباهون ولكنهم يعيشون في المنفى والأسر وأنهم باستمرار ينوحون ويحزنون علينا أمام الرب.

وأنصح بأن تنتزع منهم كتب صلواتهم وكتاباتهم التلمودية التي فيها وثنية وأكاذيب ولعنات وكفر يتم تعليمه.

وأنصح بمنع أحبارهم وربانيهم من التعليم منذ الآن فصاعداً، ومعاقبة من يخالف ذلك بالإعدام وقطع الأطراف[1].

على جميع الأحوال فإن البروتستانتية التي تمددت وامتدت إلى القارة الجديدة أمريكا لم يرقْ لها ما كانت عليه الكنيسة الكاثوليكية، وسرعان ما تداخلت الرؤية البروتستانتية مع الرؤية اليهودية الأمريكية، وذلك من خلال تكثيف الجهود الكهنوتية المشتركة لتفسير التوراة والإنجيل تفسيراً يخدم نظرية (شعب الله المختار) ويخدم بالتالي الحس العنصري الذي أسسه جون كالفن في سويسراً.

وراحت النظرة المسيحية البروتستانتية تنظر إلى اليهود على أنهم شعب مميز وأخذوا يعتقدون أن عودة اليهود إلى احتلال فلسطين شرط لتحقيق المجيء الثاني

(1) كليفورد لونجلي، الشعب المختار، ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم، الجزء 2، ص16.

للمسيح، وأن مساعدة اليهود لتحقيق هذه الغاية أمر يريده الله لأنه يعجل بمجيء المسيح الذي يحمل الخلاص والسلام، حيث ساد الاعتقاد أن النصارى المخلصين سوف يعيشون مع المسيح في فلسطين ألف سنة في رغد وسلام قبل يوم القيامة طبقاً لبعض التفسيرات الحرفية لسفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي.

ولعل أهم التحريفات التي وقعت فيها البروتستانتية هي التفسيرات اللاهوتية الجديدة التي تدعي أن الكيان الصهيوني هو استمرار لدولة إسرائيل القديمة وأن الشعب اليهودي اليوم هو استمرار للشعب الإسرائيلي القديم، وأن اختيار الشعب الإسرائيلي مازال قائماً والوعد بالأرض ما يزال مستمراً وأن العلاقة بين الشعب والأرض باقية[1].

ولعل من أكثر خرافات التأويلات البروتستانتية المنحرفة تلك التي يعتمدها زعماء الكهنوت البروتستانتي والقائلة بأن الكتاب المقدس يقول بالحرب النووية الكونية، وهي التي ستقع بين أمريكا المؤمنة وحلفائها، والاتحاد السوفياتي وحلفائه من جهة أخرى. (بالطبع الكلام كان متداولاً قبل انهيار الاتحاد السوفياتي وتشققه).

إن ما حدث في الغرب المسيحي من تحول الصراع التاريخي الدموي بين اليهودية والمسيحية إلى تحالف إستراتيجي واعتبار المسلمين المؤمنين بالمسيح أعداء للنصارى، واعتبار اليهود الذين حاربوا المسيح كما حاربوا الأنبياء كافة أصدقاء وحلفاء، وتغييب الأناجيل التي تدين اليهود وتنذرهم باللعنة والدمار والجحيم، وتحوُّلها إلى رسالة إلهية لدعم الصهاينة وتشجيع التوسع والاستيطان، ومساندة نصارى الغرب للصهاينة ضد النصارى والمسلمين العرب الفلسطينيين أصحاب أرض فلسطين، وخلع الشرعية المسيحية الدينية على الاغتصاب والإرهاب الصهيوني وتحوُّل رسالة المسيح إلى دعوة للقتل والحرب والإبادة وتبرير الحرب

(1) غريس هالسل، النبوءة والسياسة، ترجمة محمد السمّاك، ص13، من المقدمة للمترجم.

النووية دينياً، كل تلك المفارقات الآثمة والمحزنة تكشف عن واحدة من أخطر وأبشع عمليات التلاعب والتزوير الديني في تاريخ الإنسانية[1].

فالمسيحية الصهيونية حرّفت المسيحية مرة أخرى تحريفاً سياسياً معتمدة على تأويلات وتفسيرات خرافية لما جاء في الأناجيل والتوراة... والأمر المضحك أن هذه الكتب وباعتراف كافة الدارسين وحتى رجال الدين المسيحي واليهودي مؤلفة من قبل أناس مثل عزرا ولوقا ومتى ومرقص ويوحنا وغيرهم.

وعلى الرغم من ذلك راحت البروتستانتية تفسر ما جاء في هذه الكتب تفسيراً قد لا يقبل به أي مجنون أو عاقل.

ولعلنا حين نقرأ بعض التفسيرات ندهش لهذه التخريفات الجنونية التي يعتبرونها صادقة وعلى المسيحيين تصديقها، وكان على رأس زعماء هذه الحركة في العصر الحديث سايروس سكوفيلد وجيري فولويل، وجيمي سواغرت وجون داربي، وقد آمن بأفكارهم الانحرافية عدد كبير من الرؤساء الأمريكيين وأعضاء من مجلس الشيوخ والنواب، أمثال: رونالد ريغن والرئيس جونسون وجورج بوش الأب والرئيس بوش الابن ممن سمّوا بالمحافظين الجدد.

ويرون أول ما يرون أن النبوءة الإنجيلية تقضي بأن على اليهود تدمير المسجد الأقصى وبناء هيكل يهودي مكانه، والإرهابيون الذين حاولوا نسف المسجد الأقصى هم أبطال بنظر هؤلاء الأصوليين من البروتستانت.

وإذا سرنا قُدماً مع أفكار البروتستانتية الصهيونية نجدها قفزت قفزة نوعية في حرف المسيحية حرفاً كبيراً تعدى وتجاوز التحريف الذي وقعت فيه الكنيسة الكاثوليكية.

وانطلاقاً من أفكارها التعصبية والخرافية فقد وقعت في عنصرية فجّة لم يعرفها المسيح ولا عقيدته السمحاء.

---

(1) غريس هالسل، النبوءة والسياسة، ترجمة محمد السمّاك، ص14 ـ 15، من المقدمة.

لقد نادى المسيح بالتسامح بين البشر ونادت البروتستانتية المحافظة بالتفوق العرقي الأنجلوساكسوني، ونادى المسيح بالمساواة بين الناس فقيرهم وغنيّهم، ونادت باستعباد الأفارقة وغيرهم.

نادى المسيح بالسلام وهم قاموا بشن حروب الإبادة والتدمير بشتى الأسلحة التقليدية وغير التقليدية.

أدان المسيح اليهود الذين تآمروا عليه وعلى عقيدته فإذا بهم يجعلون من اليهود شعب الله المختار ويقدمون لهم الطاعة والمعونات العسكرية التي تدمر الآخرين.

فأي مسيحية هذه التي يدّعون؟.

إنها مسيحية بوش الذي ركبه الشيطان فزعم أنه مرسل من الله لنشر الحرية والديمقراطية.

ومازالوا إلى اليوم يشنون حرباً لقتل الأطفال والنساء والشيوخ في العراق وأفغانستان وفلسطين والصومال وغيرها.

أي مسيحية هذه وهم يصنّعون فيروسات الإيدز، وجنون البقر وإنفلونزا الخنازير ليشغّلوا مصانع أدويتهم ويربحوا المليارات ويبيدوا الشعوب الإفريقية والآسيوية تحت شعار: إنهم فائض عن حاجة الكرة الأرضية من البشر.

إذاً، فلتهنأ الحضارة الغربية بمسيحيتها التي لا تمت بصلة إلى مسيحنا عيسى ابن مريم، ولا تمت بصلة إلى أخلاق النبوة العربية الشرقية.